الاختيار الشعري في ديوان الحماسة لأبي تمام

توفيق مساعدية
كلية الآداب و اللغات
جامعةالإخوة منتوري
قسنطينة

ملخص:
لا يروم هذا المقال تقصي البحث في شاعرية أبي تمام ولا استعراض أبعاد الخصومة التي قامت حول مذهبه الشعري، بقدر ما يسعى إلى إبراز الأساس الذي اعتمد عليه في تبويب وتنظيم وعرض وترتيب حماسته، التي حققت نجاحا فريدا قل نظيره عند غيره ممن ألّف في كتب الاختيارات الشعرية.

Abstract:
This article aims neither at the following the poetic of the poet Abu Tammam, nor to expose dimensions of the disagreement around its poetic style as much as it aims at giving the principle that he adopted to index, organize, classify, expose and organize his book alhamassa; which realized a successful that we don't find it with the other authors of the poetic choice.

مقدّمة:
عرفت الحياة الأدبية في القرن الثاني الهجري وما تلاه، إلى جانب صناعة دواوين الشعراء منفردين أو شعراء القبيلة مجتمعين، نوعا آخر من التصنيف يسمي بـ: المختارات الشعرية[1].
وتختلف كتب المختارات الشعرية في منهج تصنيفها عن غيرها من الدواوين الشعرية الأخرى لأنها لا ترتبط بتقصي شعر شاعر بعينه، ولا نتاج مجموعة شعراء منتمين لقبيلة واحدة، بقدر ما " يصدر فيها جامعها ومختارها

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر2017

عن مبدأ أساسي هو أن تكون قصائدها -من وجهة نظره على أقل تقدير-طرازا عاليا من الشعر، أو مصورة للمثل الأعلى الشعري في بابها "[2].

ولعلنا لا نكون مجانبين الصواب إذا قلنا إن الذي وصلنا " من كتب المختارات الشعرية نوعان:نوع يدور الاختيار فيه على القصيدة، فإذا هو أولا وآخرا أشتات مختلطة من جياد القصائد تلتقى كل طائفة منها في كتاب، ولكن على غير وحدة تُقصد ولا نسق يراد، أي أنه اختيار مطلق وعمل لا تصنيف فيه. ونوع آخر يدور الاختيار فيه على المقطوعة، فإذا هو أولا وآخرا أصناف من جياد المقطوعات، تلتقي كل طائفة منها في كتاب أيضا، ولكنها مع ذلك موزعة على فنون الشعر؛ فصنف في الحماسة، وصنف في الرثاء، وثالث في الهجاء، وهلم جرا. أي أنه اختيار مقيد، وعمـــل متعدد، وهو الجمع والتصنيف على حسب فنون الشعر "[3].

1- نشأة الاختيارات شعرية وتطورها.

تعدّ المعلقات أقدم ما وصلنا من كتب المختارات الشعرية، ويعود شرف اختيارها -بإجماع الباحثين-إلى حماد الراوية(ت 155هـ)[4] الذي يعدّ " من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها، وهو الذي جمع السبع الطوال فيما ذكره أبو جعفر النحاس"[5].

والمعلقات لفظ من ألفاظ عدة أطلقها الرواة والباحثون على عدد من القصائد الجاهلية المتميزة، ولا يشك أحد في هذه الحقيقة " فكما أن في كل مجال حظوظ تتقسم بين الناس والأشياء، فإن حظوظ هذه القصائد ارتفعت على قصائد أخرى تشاركها في المستوى "[6]، ومنذ أن اعتلت المعلقات عرش الذاكرة العربية وأقلام الباحثين مختلفة في سبب تسميتها، وفي أصحابها وعددهم، وليس من عزائم هذا البحث أن يضطلع بالإجابة عن هذه الأسئلة، لأن دراسات كثيرة كفتنا تفصيل القول فيها[*].

لكن، الذي يهمنا بحق -ونحن نتحدث عن المعلقات-هو أن نقف عند الدوافع التي أدت بحماد الراوية للقيام بهذه المهمة، ونتبين الأسس التي بنى عليها اختيـــــاره[7].

ولعل أول ما يصادف الباحث وهو يتقصى الدوافع التي أدت بحماد إلى اختياره لهذه القصائد دون سواها ما قرره أبو جعفر النحاس لمّا قال:" وأصح ما قيل في هذا أن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس في حفظ الشعر جمع هذه السبع وحظهم عليها وقال لهم: هذه المشهورات، فسميت القصائد المشهورة"[8].

نعم، قد يكون ما أقرّ به ابن النحاس صحيحا، لكن الحقيقة التاريخية التي وقفت وراء عمل حماد " هي أن حمادا عاش أيام الدولة الأموية التي ظل ولاة الأمر فيها حريصين على احياء التراث العربي وتشجيع الإقبال عليه ودراسته والافادة منه في مختلف وجوه الحياة"[9]، وهي الحقيقة، نفسها، التي وقفت كذلك وراء عمل عشرات العلماء من جيل الرواة الذين اكتمل على يدهم بعث ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي[10].

أما الأساس الذي بنى عليه حماد اختياره لهذه القصائد فيقوم على فكرة رئيسة؛ وهي القصيدة الطويلة التي استوفت " كل منها الرسوم التقليدية للقصيدة الجاهلية، فليست هناك معلقة من هذه المعلقات السّبع إلاّ وهي مستوفية لتقاليد الافتتاح والرحلة والموضوع "[11].

وبهذا الأساس الذي اعتمده حماد الراوية في اختياره لهذه القصائد الطوال دون سواها يكون قد أبان عن توجه نقدي مغاير للتوجهات النقدية السائدة في عصره والتي كانت تتجه اتجاها جزئيا إلى البيت المفرد بوصفه مثالا للجودة ومعيارا لتفضيل الشعراء[12]، ذلك لأن العرب ، فيما نعلم، لم يؤثر عنهم شيء من الاختيار قبل المعلقات " إلاّ ما يُروي من تنازعهم على أفخر بيت للعرب، وأهجاه، وأغزله، ومن مجادلتهم في أشعر الشعراء وأجودهم قولا..." [13].

وبعد المعلقات تأتي المفضليات بوصفها المجموعة الثانية في الاختيار الشعري، وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة لمؤلفها المفضل الضبيّ (ت 178 هـ) الذي "كان علاّمة راوية للأخبار والآداب وأيام العرب، موثقا في روايته"[14].

وقد اختلف الرواة في الأسباب التي دفعت المفضّل الضبي إلى تصنيف اختياره، كما اختلفوا أيضا في عدد قصائد ما اختاره. فرواة المدرسة البصرية ردوا الفضل في بروز هذا العمل الرائد إلى بلدتهم

البصرة[15]، ووفق رواياتهم[**] فالفضل يعود لإبراهيم بن عبد الله صاحب الفكرة ومظهرها إلى حيز الوجود، بل إنهم جعلوا المفضّل يعترف " بأن هذا الاختيار ليس له، وإنما هو لإبراهيم بن عبد الله، وأنه لم يخرج عن كونه قد أظهر اختيار إبراهيم ونسبه إلى نفسه، ثم زاد على اختيارات ابراهيم بأن جعلها مئة وثماني وعشرين قصيدة"[16].

أما في الكوفة، فلم يُذكر شيئا عما قيل من إسهام إبراهيم بن عبد الله في تلك الاختيارات ولا مشاركته فيها، بل لم تكن ثمة رواية بصدد المفضليات غير ما ذكره القالي في أماليه من قصة جمع المفضل للمفضليات[17]، حين قال :" قال أبو عكرمة: مَرَّ أبو جعفر المنصور بالمهدي، وهو ينشد المفضّل قصيدة المسيّب التي أولها:

أرَحلتَ من سلمى، بغير متاع قبل العُطاس، ورُعتها بوداع؟

فلم يزل واقفا، من حيث لا يُشعَر به، حتى استوفى سماعها؛ ثم صار إلى مجلس له وأمر بإحضارهما، فحدّث المفضّل بوقوفه واستماعه لقصيدة المسيّب واستحسانه إياها، وقال له: لو عَمدتَ إلى أشعار الشّعراء المُقِلّينَ، واخترت لفتاك لكل شاعر أجود ما قال، لكان ذلك صوابا. ففعل المفضّل "[18].

ومهما يكن من أمر هذا الخلاف الذي أثير حول المفضليات والذي لا يخرج "عن دائرة المنافسة بين الكوفيين والبصريين، ومحاولة كل طرف سلب الطرف الآخر مزاياه وفضائله "[19]، فإن النسخة التي وصلت إلينا من المفضليات تبقى باختيار المفضل لأن القدامى -علماء ورواة-ظلوا ينسبون هذا الاختيار إلى المفضل ويسمونه باسمه[20].

وكما اختلف الرواة في من يعود له فضل السبق في اختيار المفضليات، اختلفوا كذلك في عدد قصائدها، وقد أرجع صاحب الفهرست هذا الاضطراب إلى كثرة الروايات لها فقال:" وهي مائة وثمانية وعشرون قصيدة. قد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه. والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي"[21].

وتحتوي المفضليات التي بين أيدينا على مائة وثلاثين قصيدة " لسبعة وستين شاعرا، منهم ستة شعراء إسلاميون، وأربعة عشر مخضرمون، والباقون وهم سبعة وأربعون شاعرا جاهليون لم يدركوا الإسلام"[22].

وما يلفت النظر في هذا التوزيع هو التنويع في اختيار الشعراء على العصور التالية للعصر الجاهلي، وهو أمر لم نشهده في المعلقات، ورغم هذا التنويع إلاّ أن المفضل كان قد وضع في اعتباره أن يكون الاختيار جاهليا في صورته الأساسية من خلال إكثاره للشعراء الجاهلين على حساب الاسلاميين[23]، ويبدو أن المفضل قد قصد بهذا أن يحفِّظ تلميذه شعرا أبعد ما يكون عن المؤثرات الحضرية، وفي منأى عما شاب لغة الناس من عُجْمة وهُجْنة جراء اختلاط العرب بغيرهم من الأمم والأقوام، لإيمانه -وبقية اللغويين والرواة -أن الشاعر المتقدم في الزمن أكثر ثقة بمن تأخر عنه[24].

وبعد المفضليات تأتي الأصمعيات بوصفها المجموعة الثالثة في كتب الاختيارات الشعرية؛ وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى مؤلفها عبد الملك بن قريب الأصمعي(ت 216 هـ) [25].

يعد الأصمعي بصري المنشأ والثقافة، عالم باللغة والغريب والأخبار ورواية الأشعار، وتذكر كتب التراجم والسير أن الخليفة هارون الرشيد لما أخبر بشهرة الأصمعي ونباهته، استقدمه إلى بغداد ووكلَ إليه مهمة تأديب ابنه الأمين، "ويبدو أن الرشيد راقه صنيع المنصور والمفضل، فإذا هو يكل إلى الأصمعي تأديب ابنه الأمين، ويرغب إليه أن يختار قصائد من عيون الشعر القديم، ليتعلمها الأمين ويدرب بها"[26]، فاستجاب الأصمعي لرغبة الخليفة وصنف له هذه الاختيارات التي سميت بـ : الأصمعيات نسبة له[27].

لقد حاول الأصمعي -في تلبية رغبة الخليفة-أن يجاري أستاذه المفضل/الكوفي، وأن يتمثل خطاه في انتخاب مجموعته الشعرية، لكن اختياره لم يقدر له الذيوع والانتشار، ولم ينل اهتمام النقاد والأدباء عكس ما لقيه عمل أستاذه من قبل[28]، وفي هذا يقول صاحب الفهرست:" وعمل الأصمعي قطعة كبيرة من أشعار العرب، ليست بالمرضيّة عند العلماء لقلة (غريبها)، واختصار روايتها"[29].

وقد بلغ عدد النصوص التي اختارها الأصمعي اثنين وتسعين قصيدة ومقطوعة، موزعة على احد وسبعين شاعرا منهم أربعة وأربعون شاعرا جاهليا، وأربعة عشر شاعرا مخضرما، وستة شعراء اسلاميين وسبعة مجهولون[30].

هذا، وقد اختلفت أراء الباحثين حول علاقة ديوان الأصمعيات بديوان المفضليات لما لوحظ أن المجموعتين تتداخلان وتشتركان في عدد من الاختيارات، فكان هذا مدعاة للبعض في أن يذهب بهم القول إلى أن " الأصمعيات نشأت حين كان الأصمعي يقرئ تلاميذه المفضليات ويلحق بها زيادات، فكانت هذه الزيادات المقحمة بذورا للأصمعيات"[31].

لكن في مقابل هذا الرأي انبرى فخر الدين قباوة مدافعا عن صنيع الأصمعي في اختياره، لما رأى أن بعض الباحثين قد حلا لهم أن ينزعوا من الأصمعيات أصالتها وتميزها حين فرضوا عليها النشأة الطفيلية في أحضان اختيارات المفضل قائلا:" ومع أن اختيارات الأصمعي ولدت ونشأت مستقلة، متميزة الكيان، فقد حلا لبعض الباحثين (...) أن يسوّدوا صفاء تاريخها، وينزعوا عنها الأصالة والتميز، ليلقوها ربيبة في احضان اختيارات المفضل "[32].

والجدير بالذكر، بعيدا عن هذا الخلاف بين الباحثين في حقيقة الأصمعيات وعلاقتها بالمفضليات أن الرجلين وإن كانا في اختيارهما قد افترقا في استيفاء النص حين درج المفضل على رواية القصيدة كاملة بينما كان الاصمعي يختار البيتين أو الثلاثة ويغفل ذكر باقي أبياتها[33]، فإن " السّمة الأساسية التي تشترك فيها المفضّليات والأصمعيات هي أن المختارات فيها لم تقم على أساس من النظر إلى جانب فني أو موضوعي قدر قيامها على الجانب اللّغوي، واهتمامها بالجانب الفكري الذي يبدو واضحا أن العالمين توخياه في اختيارهما للنصوص التي تطرح القيم الأخلاقية العربية رغم اختلاف اتجاهاتها الموضوعية من فخر وحماسة ومديح وهجاء..."[34].

ويأتي بعد هذه الاختيارات كتاب جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي الذي لا نعرف عنه إلا القليل فـ" المعلومات عن هذا الرجل ضئيلة للغاية، فلم يترجم له واحد من كتب الطبقات والرجال"[35].لكن المتمعن في مقدمة كتابه وما نقله عن الرواة يتضح له والقول لشوقي ضيف " أن بينه وبين رواة القرن الثاني جيلين أو ثلاثة. فالوسائط بينه وبينهم في السند غير بعيدة ولذلك نظن أنه كان يعيش في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع"[36].

هذا، ويتوزع كتاب الجمهرة على سبع مجموعات شعرية، وكل مجموعة تضم سبعة أقسام هي: المعلقات، والمجمهرات، والمنتقيات، والمذهبات، والمراثي، والمشوبات، والملحمات[37]. وتغلب في كل الاقسام، ما عدا الاخيرة منها، قصائد الجاهليين، أما في القسم السابع فقد اقتصر على شعراء من العصر الأموي[38]، ويبدوا أن ما تتميز به جمهرة أشعار العرب عن غيرها من المجموعات الشعرية الاخرى هو اقتصار صاحبها على اختيار قصيدة واحدة كاملة لكل شاعر هي في الغالب من أجود قصائده[39]، وفي هذا يقول عز الدين اسماعيل:" وقد قيد القرشي نفسه باختيار قصيدة واحدة لكل شاعر من الطبقات السبع، فكان مجموع المختارات تسعا وأربعين قصيدة لتسعة وأربعين شاعرا، وهو في هذا يختلف عن المفضل وعن الأصمعي اللذين كانا كثيرا ما يختاران للشاعر الواحد أكثر من اختيار..." [40].

هذا، ومن المفيد القول إن أهمية كتاب الجمهرة لا يتحدد فيما يحتويه من قصائد فقط، بل لاشتماله على مقدمة نقدية لافتة[41]، تحدث فيها القرشي عن بدايات نظم الشعر، وما روي عن النبي في الشعر والشعراء، وما جاء عن الصحابة والتابعين ومن قال الشعر منهم، كما تحدث عن أخبار الشعراء وطبقاتهم، وما فضل به كل رجل منهم[42].

وتأسيسا على ما تقدم، يمكن القول إن ما يلحظ على هذه المختارات الشعرية السابقة على اختيار الحماسة، أنها نصوص شعرية -كاملة أومجتزأة- تحمل ذوق المختار وحسه الأدبي، وتعكس ذوق العصر واتجاهه؛ وميزتها أنها لم تقم في مبدأ انتقائها على منهج خاص ينظمها ولا على موضوع محدد تلتزمه؛ بقدر ما كانت مجموعا لأشعار رأى منتقيها أنها على درجة من الجمال الفني الذي يستوجب جمعها لتفردها عن غيرها من القصائد[43].

و بعد هذه المجموعات الآنفة الذكر تأتي الحماسات -بوصفها الحلقة الرابعة في مسار تأليف كتب الاختيارت الشعرية -ومعها تبدأ مرحلة أخرى من مراحل الاختيار التي تختلف عما سبقها في أنها أكثر تنظيما وتبويبا. ويعتبر أبو تمام رائد هذا اللّون من التأليف على نحو ما سنوضحه فيما يلي.

2-في مواصفات اختيار أبي تمام للحماسة.

يعدّ أبو تمام حبيب بن أوس الطائي(190-231 هـ)، شاعرا عباسيا موهوبا، تألق في ديباجة لفظه، وجودة شعره، وحسن صنعته، زعيم مدرسة في تاريخ الشعر العربي " وقد اختلف الناس في أمره؛ فمنهم من تعصب له فأفرط حتى فضله على كل سالف وخالف، ومنهم من تعمد الرديء من شعره فنشره طاويا محاسنه، ومنهم من أنصفه ذاكرا ما له وما عليه "[44]، ونأسف أن ليس هذا مجال عرض هذه الخصومة تجنبا للإكثار والتطويل الذي ينأى بنا عن مباشرة موضوع البحث، بقدر ما نود أن نشير لحسن صنيع أبي تمام في اختياره للحماسة.

لقد عُرف عن أبي تمام سعة ثقافته، وحدة ذكائه، وخبرته الواسعة بجيّد الشعرقديمه وحديثه، فضلا عن مقدرته الكبيرة على رواية شعر من عاصروه ومن سبقوه، ولا شك في أن أبا تمام قد أفاد من هذه المؤهلات وأعملها فيما وصله من أشعار العرب، فأختار من القصائد والمقطعات ما ارتضاه ذوقه الفني، واستجاده حسه الشعري[45]، فكانت النتيجة أن صنف خمسة كتب في الاختيار الشعري، " كان ديوان الحماسة واحدا منها وربما كان أبرزها"[46].

ويعود سبب تأليفه على نحو ما أورده التبريزي في مقدمة شرحه من خبر مفاده أن أبا تمام" جاء خرسان يريد العراق، فلما دخل همذان اغتنمه أبو الوفاء بن سلمة، فأنزله فأكرمه، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم، قطع الطرق ومنع السَّابلة، فغمّ أبا تمام ذلك، وسرَّ أبا الوفاء, فقال له: وطِّن نفسك على المقام فإن هذا الثلج لا ينحسر إلاّ بعد زمان، وأحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها وصنّف خمسة كتب في الشعر، منها كتاب الحماسة (...) فبقي كتاب الحماسة في خزائن آل سلمة يضنون به ولا يكادون يبرزونه لأحد حتى تغيرت أحوالهم وورد همذان رجل من أهل دينور يعرف بأبي العواذل فظفر به وحمله إلى أصبهان فأقبل أدباؤها عليه ورفضوا ما عداه من الكتب المصنعة في معناه فشهر فيهم ثم فيمن يليهم"[47].

ويتفق زيد الفسوي مع التبريزي في سبب تأليف أبي تمام لحماسته لكنه يخالفه في عدد الكتب المصنفة، بحيث يجعلها ثلاثة كتب لا خمسة[48]، حيث يقول في مقدمة شرحه لديوان الحماسة :" وأحضره أبو الوفاء كتبه فأختار أبو تمام منها هذا (يعني الحماسة) والوحشي وشيئا من الانتخاب "[49].

لكن يبدو أن هذه الحادثة التي صنعتها الظروف الطبيعية وكانت سببا في ظهور هذه الكتب لم تقنع بعض الأدباء والنقاد من أمثال طه حسين[50]، الذي ذهب إلى إنكار ما أورده الرواة عن عدد الاختيارات التي ألفها أبو تمام في همذان؛ بحجة أن المدة التي قضاها في همذان -بين سقوط الثلج وذوبانه -لا تسمح له بتأليف هذا العدد من الكتب[51] قائلا : " لكن هذا غير ممكن وغير معقول، فقدكانت إقامته رهن زوال الثلج، وهذا لا يتجاوز الأشهر القليلة، ومن المستحيل أن يصدق أنه قد اختار هذه الكتب في شهرين أو ثلاثة "[52].

وقد وقف الباحثون -من هذا الرأي الذي أدلى به طه حسين-مواقف متباينة بين رفض وقبول، فعلي النجدي ناصف مثلا يعترض على قول طه حسين ويرى أن ما أورده الرواة أمر ممكن الحدوث ومجال العقل أوسع من أن يضيق به، بحجة أن رجلا له مثل ما لأبي تمام من ألمعية خاطفة وذوق مرهف لا تبطئ به القراءة والاختيار، ولا يكلفانه من الوقت والجهد ما يكلفان سواه. الأمر الذي يجعل من مدة إقامته في همذان وقتا كافيا للاختيار والتصنيف[53].

أما محمد عثمان علي فيرى أن قول طه حسين " يصعب دفعه إذا قلنا برواية التبريزي، أما إذا قلنا (برواية زيد الفسوي) فإن الأمر يصبح في حيز المعقول وبعيدا عن المستحيل الذي أشار إليه الدكتور طه حسين، وبخاصة إذا علمنا أن أبا تمام كان كثير الحفظ من شعر العرب، وأن هذا يعينه كثيرا على انجاز ما أزمع صنعه في هذه الاختيارات الثلاثة"[54].

لكن اللافت في كل هذا وذاك، أن هذه الآراء مجتمعة لم تختلف في الحادثة التي أوردها الرواة في سبب تأليف أبي تمام للحماسة، بقدر ما كانت اختلافا في عدد اختياراته التي ألفها مع الحماسة في فترة اقامته بهمذان.

والجدير بالذكر، هنا، أن ما اتفقت عليه ألسنة الرواة وأقلام الباحثين من أن أبا تمام قد ألف حماسته في همذان بسبب الحادثة التي صنعتها الظروف الطبيعية، لا يعني كما قد يظن البعض أن أبا تمام لم يجد ما يفعله لما منعه الثلج من الوصول إلى العراق سوى العكوف على تصنيف حماسته[55]، فمن الصعب التصديق والقول لحسين محمد نقشة " أن يكون أبو تمام في فترة إقامته القصيرة في همذان قد ألف الحماسة وهو خالي الذهن من الأسس الأولى لمنهج الاختيار وأسسه"[56].

وإذا علمنا أن أبا تمام كان مهتما بجمع الشعر وحفظه وروايته مشغوفا به مدة عمره بتبحره ودراسته[57] -كما سبق وأشرنا-جاز لنا القول إن فكرة اختيار الحماسة كانت ناضجة عند أبي تمام، وأن أسسها العامة كانت مستقرة في ذهنه على نحو ما، ولما فرضت عليه هذه العزلة استعان بمكتبة آل سلمة الزاخرة وألف حماسته[58].

إن الحماسة في الأصل أحد أنماط الاختيارات الشعرية المبتكرة التي جمع فيها أبو تمام عيون الشعر العربي، وصنفها في عشرة أبواب بحسب الموضوعات والأغراض الشعرية وهي: الحماسة، ثم المراثي، ثم الأدب، ثم النسيب، ثم الهجاء، ثم الأضياف، ثم المدح والصفات، ثم السير والنعاس، ثم المـــــــلح، وأخيرا مذمة النساء[59].

ويكمن الفرق بين أبي تمام وبين غيره ممن ألف في الاختيارات الشعرية أنه لم يراع في اختياره " أساس القصيدة وأقسامها، كما صنع الرواة في المفضليات والأصمعيات والمعلقات، ولا القبيلة، كما في أشعار القبائل، ولا الشاعر كما في دواوين الشعراء، إنما راعى المعاني ونمطية الفن وسننه"[60]، وهو ما يجعل من اختياره -وفق هذه الرؤية-ابتكارا غير مسبوق، وتحولا مفصليا في مسار تأليف كتب الاختيارات الشعرية[61].

وتفيد كتب المصادر أن أبا تمام نفسه من أطلق اسم الحماسة على مجموعته الشعرية[62]، فقد كان مألوفا لدى العرب إطلاق البعض على الكل وتسمية الشيء باسم الجزء ، كما انتشرت تسمية الأشياء بأوائلها؛ فقد سميت فاتحة الكتاب العزيز بسورة الحمد، وسمى كتاب العين بأول ما ورد فيه من كلمات، وكثيرا ما تسمى القصائد بمطالعها، ولما كان باب الحماسة هو أول الأبواب وأكبرها فقد عرفت هذه المختارات باسم الحماسة[63].

ويتضح للمتمعن في ديوان الحماسة أن أبا تمام قد قصر اختياراته على شعراء من العصر الجاهلية وعصر صدر الاسلام والعصر الأموي مع بعض المقطوعات القليلة لشعراء من العصر العباسي، وأكثر الشعراء الذين اختار لهم كانوا من المقلين، فأختار لهم نصيبا وافرا من الشعر يقل عنه نصيب ما اختار للشعراء اللامعين[64]، لإيمانه بأن شعر المقلين أو المغمورين لا يقل جودة عما هو متداول بين الرواة من شعر المشهورين[65].

ولم يكن دأب أبي تمام في اختياره أن ينسب جميع الحماسات إلى أصحابها بل كان كثيرا ما يغفل عزو ذلك، وما أغفله إما أن يأتي منسوبا إلى مجهول كلية كقوله : وقال آخر، أو قالت امرأة، وإما أن يأتي منسوبا إلى مجهول الاسم معروف القبيلة كقوله: قال رجل من بني الحارث، أو قالت أعرابية من طيئ، وإما أن يأتي منسوبا إلى مجهول الاسم معروف البيئة كقوله: وقال أعرابي، أو قال مدني[66].

هذا، وكان نصيب شعراء طيىء من الاختيار وافرا مقارنة بما اختاره أبو تمام من شعر شعراء القبائل الأخرى، ويذهب علي النجدي ناصف إلى تعليل هذا الاهتمام من أبي تمام بشعراء قومه[67] بقوله:" ولا على أبي تمام أن يبّر شعراء قومه، ويفي لهم، وينشر شعرهم، ويختار لهم ما دام حقيقا بالنشر والاختيار، ففيه حينئذ داعيان الجودة والقومية، وفي شعر الآخرين من غير قومه داع واحد هو الجودة لا غير"[68].

وأيا ما كان الدافع من وراء اهتمام أبي تمام بالشعراء الطائيين فإن الذي ينظر في شعرهم الذي اختاره أبو تمام- والقول لمحمد عثمان علي-يجد أنه حري بالاختيار؛ بل إن فيه ما يبلغ الدرجة العليا من بديع القول وبليغه بحيث يمكن القول فيه بأن بعضه أجودوأحسن ما ضمت بعض أبواب الديوان[69].

والجدير بالذكر، هنا، أن اعتماد أبى تمام على مقياس الجودة والاستحسان في اختيار مقطعاته جعلته يتجاوز طريقته في الشعر وما تميزت به من طلب للصور ومن اغراب في توليد المعاني، إلى شعر يتميز بالبساطة وشيء غير قليل من العفوية والصدق العاطفي[70]، وفي هذا يقول المرزوقي:" وما تعجبك من أبي تمام في اختياره هذا المجموع وخروجه عن ميدان شعره ومفارقته ما يهواه لنفسه"[71].

لكن ما يؤخذ على هذا الاختيار الذي أثبت فيه أبو تمام تنوع مزاجه الفني الذي تساوق مع معان شعرية غير ما خاض فيه من أشعار هو اتهامه بالتغير في بعض ما كان يورده من نصوص في حماسته[72]، وأصل هذه التهمة تعود للمرزوقي القائل في مقدمة شرحه لديوان الحماسة: " حتى إنك تراه (أي أبا تمام) ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه، فيجبر نقيصته من عنده، ويبدلّ الكلمة بأختها في نقده، وهذا يَبِين لمن رجع إلى دواوينهم فقابل ما في اختياره بها "[73].

والمرزوقي-بهذا القول-لم يكن يقصد الانتقاص من قيمة الشعر الذي حوته الحماسة، بقدر ما كان يرمي من وراء ذلك إلى إظهار ما لأبي تمام من مقدرة فنية وذوق رفيع لا يقلان شأنا عما ظهر في أشعار هؤلاء الشعراء الذين انتقى لهم وأختار، ولذلك نجده في موضع آخر يرد عليه التهمة ويعزز من إعجابه بصنيعهفي حماسته[74]بقوله:" على أني نظرت فوجدت أبا تمام قد غير كثيرا من ألفاظ البيوت التي اشتمل عليها هذا الكتاب، ولعله لو أنشر الله الشعراء الذين قالوها لتبعوه وسلموا له"[75].

وقد أجمع العلماء على أن ما قام به أبو تمام من تقديم وتأخير في بعض الأحيان، وحذف وزيادة في أحايين أخر، لا يقلل من أدبية الحماسة ولا من حجيتها باعتبارها نصوصا يستدل بها النحاة واللغويون في اللغة وعلومها[76]، وفي هذا يقول الزمخشري: " وهو، وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللّغة، فهو من علماء العربية، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل على هذا بيت الحماسة، فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه"[77].

وعلى هذا لم يكن غريبا أن تأخذ الحماسة منزلة كبيرة في الأوساط العلمية، وتنال من العناية والاهتمام ما لم تنله مجموعة أدبية أخرى، وآية ذلك أن الأدباء والعلماء قد سلكوا في التعبير عن هذا الاعجاب طريقين هما التقليد والشرح[78].

أما التقليد فقد حاول العديد من الأدباء أن يقلدوا الحماسة ويسيروا على المنهج الذي سلكه أبو تمام، فظهرت في التراث العربي سلسلة من الحماسات بعضها يلتقي مع مسلك أبي تمام وبعضها الأخر يختلف عنه[79]، ويعدّ البحترى أول من فتح باب التقليد حين " عمل حماسة نسبة إليه، أراد لها أن تضارع حماسة أبي تمام، فلم يفلح في مراده، ثم توالت غير حماسة بعد، ونذكر من هذه الحماسات: حماسة أبي هلال العسكري، وحماسة ابن الشجري، والحماسة البصرية، وحماسة الظرفاء، وحماسة القرشي، وما إلى ذلك"[80].

أما الشرح فقد اتسعت مادته وتنوعت مراميه وأهدافه حتى أننا لا نعرف أثرا من الأثار الأدبية كتابا كان أو ديوان شعر توفر عليه الشراح مثلما توفروا على شرح حماسة أبي تمام التي ربت شروحها عن الأربعين شرحا[81]،ونأسف أن ليس هذا مجال عرضها تجنبا للإطالة التي أغنانا عنها حاجي خليفة الذي حفظ لنا في كشف الظنون ثبتا لأسماء من تصدى لشرح حماسة أبي تمام، وهو الثبت نفسه الذي اعتمد عليه عبد السلام هارون فيما أورده من شروح في مقدمة شرح المرزوقي وأضاف إليه ما وقف عليه من شروح لم ترد في كشف الظنون، وكذلك فعل عبد الله عسيلان حيث اعتمد فيما أورده على ثبت عبد السلام هارون، وأضاف إليه ما وقف عليه من شروح لم يذكرها عبد السلام هارون، والأمر ذاته قام به محمد عثمان علي الذي اطلع على هذه الجهود الطيبة التي سبقته وأضاف إليها ما وقف عليه من شروح لم ترد عند من سبقه[82].

لقد كان لديوان الحماسة دور كبير في إيجاد هذا القدر الكبير من الشراح الذين تنوعت شروحهم بتنوع مشاربهم الثقافية، ومنازعهم الفكرية، ومناهجهم النقدية، ووسائلهم الاجرائية، فكان منهم من اهتم بالغريب كالمعري، ومنهم من وقف عند الأخبار والأنساب كابي الرياش، ومنهم من توخى المعاني كالدمتري والنمري، ومنهم من قصر جهده على النحو كابن جني[83]، ومنهم من تعمقت لديه المعرفة

بنظرية الابداع وتنوعت الآلات الاجرائية، فأنشغل بجميع هذه العناصر، كما هو الحال عند المرزوقي والتبريزي في المشرق والشنتمري في المغرب الاسلامي[84].

الهوامش:

1- أحمد طاهر مكي: دراسة في مصادر الأدب. دار الفكر العربي. القاهرة. ط 8. 1999. ص 99.
2- عز الدين اسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي. دار النهضة العربية. بيروت-لبنان. (د،ط). (د،ت). ص 65.
3- على النجدي ناصف: دراسة في حماسة أبي تمام. مكتبة نهضة مصر. ط 2. 1959. ص 7.
4- سليمان الشطي: المعلقات وعيون العصر. عالم المعرفة. الكويت. 2011. ص .7
5- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ج 2. ص .206
6-سليمان الشطي: المعلقات وعيون العصر. ص 7.
* - للإجابة عن هذه الإشكالات ينظر: سليمان الشطي: المعلقات وعيون العصر. ص 11- .40
7- حسين محمد نقشة: حماسة أبي تمام وشروحها. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1987. ص 21.
8- أبو جعفر النحاس: شرح القصائد التسع المشهورات. تحقيق أحمد خطاب. دار الحرية للطباعة. بغداد. 1973. ج 1. ص .46
9- حسين محمد نقشة: حماسة أبي تمام وشروحها. ص 22
10 - المرجع نفسه. ص .22
11 - المرجع نفسه. ص .35
12- ينظر: كريم جميل حسن الجبوري: الحماسات اختيارا شعريا-حماستا أبي تمام والبحتري- دراسة تحليلية. رسالة دكتوراه(نسخة الكترونية). جامعة بغداد. العراق. 2005. ص 10. وينظر كذلك زكي ذاكر العاني: تقويم جديد لجهود حماد الراوية في الشعر العربي ونقده. مجلة المورد. دار الشؤون الثقافية العامة. المجلد 27. العدد الأول. 1999. ص 30 وما بعدها.
13- المفضل الضبي: المفضليات. تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. دار المعارف القاهرة. ط 6. ص .9
14- المصدر نفسه. ص .24
15- زكي ذاكر العاني: دراسة جديدة لاختيارات المفضل الضبي المسماة بـــ(المفضّليات). مجلة المورد. المجلد 19. العدد 2. 1990. ص 101.
** - والروايات في هذا كثيرة و متعددة نكتفي - على سبيل التمثيل - بإراد ما روي عن العباس بن بكار الضبي أحد علماء البصرة قوله: " (قلت للمفضل الضبي) ما أحسن اختيارك للأشعارّ؛ فلو زدتنا من اختيارك؟ فقال: والله ما هذا الاختيار لي، ولكن إبراهيم بن عبد الله استتر عندي، فكنت أطوف وأعود إليه بالأخبار فيأنس ويحدثني، ثم عرض لي الخروج إلى ضيعتي أياما فقال لي: اجعل كتبك عندي لأستريح إلى النظر فيها، فتركت عنده قمطرين فيهما أشعار وأخبار، فلما عدت وجدته قد علّم على هذه الأشعار، وكان أحفظ الناس للشعر فجمعته، وأخرجته فقال الناس: اختيار المفضل". ينظر السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون. مكتبة دار التراث. القاهرة. ط 3. مجلد 2. ص .319
16- زكي ذاكر العاني: دراسة جديدة لاختيارات المفضل الضبي المسماة بـــ(المفضّليات). ص .101
17- المرجع نفسه: ص 102
18- القالي: ذيل الأمالي. دار الكتب العلمية. بيروت. ص 130- .132
19- زكي ذاكر العاني: دراسة جديدة لاختيارات المفضل الضبي المسماة بـــ(المفضّليات). ص .102
20- فخر الدين قباوة: منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات. ص 247- 248.
21- ابن النديم: الفهرست. دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت ص .102
22- ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. دار الجيل. بيروت ص .573

23- محمود عبد الله الجادر: المفضليات دراسة في مواصفات الاختيار. مجلة المورد. المجلد 27. العدد 2. 1999. ص 48. وينظر كذلك كريم جميل حسن الجبوري: الحماسات اختيارا شعريا-حماستا أبي تمام والبحتري- دراسة تحليلية. ص 11.
24-زكي ذاكر العاني: دراسة جديدة لاختيارات المفضل الضبي المسماة بـــ(المفضّليات). ص108-109.
25- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي. دار المعارف. القاهرة. ط 22. ص 178.
26- فخر الدين قباوة: منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات. ص 272.
27- البغدادي: خزانة الأدب. ج 10. ص .104
28- خولة عمر الحليبي: حماسة أبي تمام وحماسة البحتري دراسة مقارنة. أطروحة دكتوراه(نسخة الكترونية). كلية الآداب والعلوم الانسانية. جامعة دمشق. 2007-2008. ص 19
29- ابن النديم : الفهرست. ص 83. وينظر كذلك: خولة عمر الحليبي: حماسة أبي تمام وحماسة البحتري دراسة مقارنة. ص 19.
30- عز الدين اسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي. دار النهضة العربية. بيروت-لبنان. (د،ط). (د،ت). ص 78.
31- فخر الدين قباوة: منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات. ص .272
32- المرجع نفسه. ص .272
33- حسين محمد نقشة: حماسة أبي تمام وشروحها. ص 41
34- المرجع نفسه. ص 42.
35- عز الدين اسماعيل: عز الدين اسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي. ص .80
36- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي. ص .178
37- القرشي: جمهرة أشعار العرب. تحقيق علي محمد البيجاوي. نهضة مصر. (د ط).(د ت). ص 03
38- أحمد طاهر مكي: دراسة في مصادر الأدب. ص 110-.111
39- محمد علي صالح الشهري: المراثي في جمهرة اشعار العرب. رسالة ماجستير(نسخة الكترونية). جامعة أم القرى. العربية السعودية. 2003. ص .19
40-عز الدين اسماعيل: عز الدين اسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي. ص 84-.85
41-خولة عمر الحليبي: حماسة أبي تمام وحماسة البحتري دراسة مقارنة. ص .22
42- القرشي: جمهرة أشعار العرب. ص 05.
43- ينظر خولة عمر الحليبي: حماسة أبي تمام وحماسة البحتري دراسة مقارنة. ص 24.
44- عدنان عمر الخطيب: المنهج التكاملي عند الخطيب التبريزي. مجلة التراث العربي. دمشق. السنة 25. العدد 99-100. تشرين الأول 2005. ص .346
45- ينظر: أحمد صالح النهمي: الخصائص الأسلوبية في شعر الحماسة. ص 273. ومحمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. ص 11 وما بعدها.
46- عز الدين اسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي. ص .91
47- التبريزي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام. ص .11
48- ينظر محمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. ص .12
49-زيد الفارسي: شرح كتاب الحماسة. تحقيق محمد عثمان علي. دار الأوزاعي. الدوحة- بيروت. ط 1. د ت. الجزء 1. ص .75
50- ينظر خولة عمر الحليبي: حماسة أبي تمام وحماسة البحتري دراسة مقارنة. ص .34
51- ينظر محمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. ص 13. وحسين محمد نقشة: حماسة أبي تمام وشروحها. ص .80
52- طه حسين: حديث الشعر والنثر. دار المعارف. مصر. ط 1. د ت. ص .100

53- علي النجدي ناصف. دراسة في حماسة أبي تمام. مكتبة نهضة مصر. القاهرة. ط 2. 1959. ص 10-13. وينظر كذلك محمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. ص 14 وما بعدها.
54- محمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. ص .14
55- المرجع نفسه. ص 16.
56- حسين محمد نقشة: حماسة أبي تمام وشروحها. ص 79.
57-الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري. تحقيق السيد أحمد الصقر. دار المعارف. القاهرة. ط 4. ج1. ص 58.
58- ينظر: أحمد طاهر مكي: دراسة في مصادر الأدب. دار الفكر العربي. القاهرة. ط 8. 1999. ص 122. وحسين محمد نقشة: حماسة أبي تمام وشروحها. ص 80.
59- العياشي السنوسي: قضايا توثيق النص وتحقيقه. مطبعة انفو-برانت. فاس. د ط. 2007. ص .7
60-المرجع نفسه. ص .7
61- ينظر: أحمد صالح النهمي: الخصائص الأسلوبية في شعر الحماسة. ص 273- .274
62- ينظر: الآمدي: المؤتلف والمختلف. تحقيق كرنكو. دار الجيل. بيروت. ط 1. 1991. ص 238. الآمدي: الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري. ج 1. ص .58
63- على النجدي ناصف: دراسة في حماسة أبي تمام. ص 14-.15
64- عبد الرحيم عسيلان: حماسة أبي تمام وشروحها. ص .45
65- زكي ذاكر العاني: دراسة جديدة لاختيارات المفضل الضبي المسماة بـــ(المفضّليات). ص.108
66- أحمد طاهر مكي: دراسة في مصادر الأدب. ص .123
67- ينظر محمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. ص 40.
68- على النجدي ناصف: دراسة في حماسة أبي تمام. ص 32.
69- محمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. ص 40.
70- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب. دار الشروق. عمان- الأردن. ط 4. 2006. ص 60.
71- المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. ج 1. ص .13
72- حسام عبد الكريم الزبيدي: حماسة أبي تمام برواية الأعلم الشنتمري دراسة أسلوبية. أطروحة دكتوراه(نسخة الكترونية). كلية الدراسات العليا. الجامعة الأردنية. 2013. ص 13 وما بعدها.
73- المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. ج 1. ص .14
74- ينظر: عبد الرحيم عسيلان: حماسة أبي تمام وشروحها. ص 41.
75- المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. ج 1. ص 83-.84
76- ينظر: العياشي السنوسي: قضايا توثيق النص وتحقيقه. ص .08
77- البغدادي: خزانة الأدب. تحقيق احسان عباس. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط 3. 1996. ج 1. ص 07.
78 – ينظر: عدنان عمر الخطيب: المنهج التكاملي عند الخطيب التبريزي. ص .348
79- ينظر: عبد الرحيم عسيلان: حماسة أبي تمام وشروحها. ص 48- .49
80- عدنان عمر الخطيب: المنهج التكاملي عند الخطيب التبريزي. ص .348
81 - عبد الرحيم عسيلان: حماسة أبي تمام وشروحها. ص .46
82 - محمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. ص 73- 92.وينظر كذلك: حاجي خليفة: حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. دار احياء التراث العربي. بيروت. المجلد 1. ص 691-692. والمرزوقي: شرح ديوان الحماسة. ج 1. ص 10-15. وعبد الله عبد الرحيم عسيلان: حماسة أبي تمام وشروحها. ص 62-67.
83 – ينظر: محمد عثمان علي: شروح حماسة أبي تمام. ص 70. والعياشي السنوسي: قضايا توثيق النص وتحقيقه. ص08- .09
84- العياشي السنوسي: قضايا توثيق النص وتحقيقه. ص 09.